تاريخ ايران بين المغول والصفويين

به قلم آقای میشل م. مزّاوی

الجزء الاول : لمحة عامة

١ ــ تاريخ ايران بين حملة المغول في القرن السابع الهجرى ونشؤ الدولة الصفوية في اواخر القرن التاسع يحتاج الى المزيد من البحث والتدقيق حتى يتمكن المرء ان يفهم هذه الفترة فهما صحيحا ويستطيع بالتالى ان يجد الاسباب الحقيقة التى أدّت الى ظهور الصفويين وجلوس شاه اسمعيل على عرش ايران فى العقد الاول من القرن العاشر .

٢ ــ وليس هذا البحث الذى أقدمه الآن سوى مقدمة مختصرة القصد منها مبدئيا ابراز معالم هذه الفترة المهمة من تاريخ ايران والاشارة الى أهمّ السبل التى يمكن للباحث أن ينهجها كى يتوصّل الى حلّ العقد الكثيرة التى سيجدها فى كل منعطف يمر به اثناء سيره فى هذا الطريق. فالطريق طويل والمنعطفات فيه كثيرة، لكن المتفحّص فى هذا الدور التاريخى الهامّ سيجد خطّا واضحا يصل بين هولاكو المغولى واسمعيل الصفوى ــ وهو خط ارجو ان أوفّق فى رسمه بحيث يصبح المعنى التاريخى لهذه الفترة واضحا بالقدر الذى تساعدنا فيه المصادر التاريخية الكثيرة على كشف هذا المعنى وفهمه فهما صحيحا .

٣ ــ وبالرغم من ان الوقائع السياسية التى جرت فى هذه الفترة معقّدة كل التعقيد الّا انه يمكن تتبّعها بكثير من الدقة فى مصادرها التاريخية العديدة . لكنّ سرّد الوقائع هذه لايكفى ولايغنى ، والاهمّ من ذلك محاولة ايجاد الروابط بين مختلف الوقائع بحيث نستطيع ان نفسّر التغيّرات التاريخية على مرّ السنين . وهذا يعنى بالطبع اختيار تلك الاحداث التى اثّرت تأثيرا حقيقيا فى سير الامور والتى كان لها مسبّبات ونتائج بارزة فى حياة الاشخاص

والاقوام . فنحن لايهمّنا الآن مثلا ان نتتبّع الدسائس التى لا حد لها فى قصور الملوك والسلاطين الذين عاشوا فى ذلك العصر — والمصادر التاريخية مليئة بالقصص حول هذا الموضوع — لكن سنوجّه اهتمامنا الى ماحقّقته السلالات المختلفة من مآثر بقيت بعد حكمها وازدهارها ثم اندثارها .

٤ — ومع أنّ الاوضاع السياسية هى من الاهمية بمكان كبير ، الّا ان معلوماتنا عن هذه الفترة التاريخية ستبقى ناقصة ما لم نحاول ان نستقصى الاحوال الاجتماعية والاقتصادية التى هى فى الواقع من اهمّ المشاكل التى تعترى المؤرخ فى طريقه عند مايريد ان يحلّل الوقائع التاريخية فى أية فترة من الفترات فى التاريخ الاسلامى . فالحركات الاجتماعية والتطورات الاقتصادية التى حدثت فى ايران بعد حمله المغول كان لها الاثر البالغ فى تاريخ هذا البلد وفى الشكل الذى اتّخذه هذا التاريخ مما أدى الى ظهور دولة الصفويين فى اوائل القرن العاشر .

٥ — مصادر البحث لهذه الفترة فى تاريخ ايران كثيرة ، وهى على انواع أولها وأهمها المؤرخون الذين عاصروا الاحداث وكتبوا وصفا لما شاهدوا اوسمعوا . فابن الاثير كان يكتب آخر فقرات « الكامل فى التاريخ » فى بلدته الموصل بينما كانت جيوش المغول تزحف فى المناطق الشمالية الغربية متّجهة الى شرقى اوروبا ، وكان ياقوت الحموى لايزال يبيّض « معجم البلدان » ويصف لنا مارآه فى اردبيل « وهى مدينه كبيره جدا رأيتها سنه ٦١٧ » ، ثم ذكر ما قاسته المدينة على أيدى جيوش المغول « بعد انفصالى عنها » . وزارها ياقوت بعد تسع سنوات فوجدها قد عادت الى ما كانت عليه قبل الغارة . وهناك بعد ياقوت وابن الأثير عدد كبير من المؤرخين والكتّاب الذين جمعوا المجلدات العديدة ودوّنوا فيها تاريخ ايران بين المغول والصفويين نذكر منهم مايلى على سبيل المثال لا الحصر : عطاملك جوينى ومؤلفه عن هولاكو وهو « تاريخ جهان گشا » ، ورشيد الدين فضل الله الوزير المشهور ومؤلفة الكبير « جامع التواريخ » ، وحمدالله مستوفى قزوينى وكتابيه « تاريخ گزيده » و « نزهت القلوب » . وهؤلاء دوّنوا حوادث الدور الاول من هذه الفترة التاريخية . وهناك من جاء بعدهم من المؤرخين الذين اهتموا بالقرن الثامن وبالدور التيمورى ومنهم وصّاف وشرف الدين يزدى

ونظام الدين شامى وابن عربشاه وحافظ أبرو وغيرهم . وأخيرا يجب ان نذكر المؤرخين الكبيرين الذين جمعا تواريخ القرن التاسع وهما ميرخواند وخواندامير . هذا عدا عن مؤرخى السلالات الصغيرة والاقاليم المستقلة ، ومؤرخى المماليك ممّن أشاروا الى حوادث ايران فى هذا الدور من أمثال ابن خلدون والمقريزى وابن حجر العسقلانى وابن تغرى بردى والسخاوى والعينى والسيوطى وابن اياس وغيرهم .

٦ ــ أما النوع الثانى من المصادر فهم كتّاب الطبقات والتذكرات الذين جمعوا فى تآليفهم العدد العديد من التراجم والسير فى مختلف المواضيع والابواب كالعلماء والشعراء والساسة والرجال . ومن هؤلاء من تتبّع أفرادا جمعهم قرن واحد كابن حجر وكتابه « الدرر الكامنة » والسخاوى ومؤلفه «الضوء اللامع» وابن تغرى بردى ومؤلفه « المنهل الصافى » . ويجب ان نشير هنا بوجه خاصّ الى كتب الرجال عند الشيعة الاثنا عشرية وأشهرها فيما له علاقة مباشرة بهذه الفترة كتاب « مجالس المؤمنين » للقاضى نورالله الششترى الشهيد . وكتب الطبقات هذه من الاهمية بمكان كبير خصوصا وأنها تشتمل على مواضيع وأخبار لم يدوّنها لنا المؤرخون الذين مرّ ذكرهم .

٧ ــ وهناك نوع ثالث من المصادر التاريخيه قلّما استفاد منه المحققون فى تاريخ هذه الفترة وهو مايسمّى بالمنشآت اى مجموعات المراسلات السياسية وغيرهما مما كان يدور بين مختلف الملوك والسلاطين ووزرائهم فى مختلف العهود . وقد نشر قديما من هذه المجموعات « منشآت سلاطين » لفريدون بك ، ثم هناك « مكاتبات رشيدى » لصاحبها رشيد الدين فضل الله وهذه ذات أهمية بالغة لدور الايلخانيين، ونشر حديثا بعض هذه المراسلات لكن الكثير منها لايزال مخطوطا .

٨ ــ هذه الانواع الثلاثة من المصادر ــ كتب التاريخ ، وكتب الطبقات، ومجموعات المنشآت ــ هى لاشكّ اهم مايجب على المحقق ان يرجع اليه فى هذه الفترة لتتبّع الحركات السياسيه والاجتماعيه والاقتصاديه . لكن بالاضافه الى ذلك يجب الاشاره بوجه خاصّ الى نوعين آخرين من المصادر تسدّ فراغا أساسيا وتمدّنا بمعلومات كثيرة عن سير الحوادث

فى هذه الفترة التاريخية، وهذان هما الكتب الدينية التى لها علاقة مباشرة بالتشيّع والتصوّف فى فترة مابعد المغول من جهة ، والكتب الأدبية على اختلاف أنواعها من جهة أخرى .

٩ ــ أما الكتب الدينية فهى كثيرة يصعب حصرها فى هذه المقدمة القصيرة . لكننا اذا تذكرنا ان هذه الفترة شاهدت تطورات دينية ومذهبية لم تشهدها فترة اخرى من الادوار الاسلامية ، واذا علمنا ان الحركات الصوفية بعد مجيء المغول ازدهرت بشكل لم يكن له مثيل فى التاريخ الاسلامى قبل سقوط بغداد ، استطعنا ان نقول جازمين انه اذا لم يرجع المحقّق الى مثل هذه المصادر سيكون من الصعب عليه جدا ــ ان لم يكن من المستحيل ــ ان يعلّل نشوء الدولة الصفوية التى ظهرت فى أواخر هذه الفترة والتى ترجع اصولها الى حركة صوفية كان مركزها فى اردبيل فى القرن الثامن ايّام الشيخ صفى الدين، والتى تطوّرت وتدرّجت فأصبحت اول دولة شيعية « رسمية » فى ايران . فلا يمكن لمتتبّع تاريخ ايران بين المغول والصفويين مثلا ان ينسى الخواجه نصير الدين طوسى وموقفه السياسى والدينى فى مطلع هذه الفترة ، والاسماعيلين من أتباع حسن الصبّاح وماجرى لهم بعد ان قضى هولاكو على قلاعهم قبل مسيره الى بغداد ، والعلّامة الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلى ومحاولته تثبيت دعائم الشيعة الاثنى عشرية فى دور الايلخانيين أيام ألجايتو خدابنده ، ومحمد بن مكّى العاملى « الشهيد الاول » وعلاقته مع سلالة السربداريين فى خراسان . واحمد بن فهد الحلى العالم الاثنى عشرى فى اواخر القرن الثامن واوائل التاسع وعلاقته بالتصوّف من جهة ، وبحركات المتطرّفين من امثال محمد بن فلاح ودولة المشعشعيين فى جنوب العراق ومحمد نوربخش وحركته فى خراسان وماوراء النهر من جهة أخرى . ويجب كى نفهم ظهور الدولة الصفوية ان نحاول التعمّق فى درس السياسات والاتّجاهات الدينية والمذهبية فى القرن التاسع للسلالتين التركمانيتين قراقوينلو وآق قوينلو فى ايران وللتيموريين فى ماوراء ـ النهر شرقا ولسلاطين آل عثمان فى الاناطول غربا . واخيرا يجب دراسة ماجرى للطريقة الصوفية نفسها فى اردبيل وتطوّرها منذ عهد الشيخ صفى الدين وخلفائه صدرالدين موسى وخواجه على وشيخ ابراهيم اولا، ومن ثم تغيّرها تغيرا جذريا ايام شيخ جنيد وشيخ حيدر

وهما على التوالى جدّ ووالد شاه اسماعيل. وكيف يمكننا ان نفهم حركات الشيعة فى هذا الدور التاريخى الهامّ دون ان نلقى نظرة — لم يفعلها كاتب او محقّق للآن على ما اعلم — على تطوّر مذهب السنّة فى هذه الفترة نفسها ؟ وسوف نخطىء دون شكّ اذا اعتبرنا التسنّن فى الاسلام وقف وقفته المشهودة ايّام الاشعرى والغزالى واكتفينا بمقتضى القول المعروف «ليس بالامكان أحسن مما كان» ولم ننظر نظرة جدّية ثاقبة فى مؤلفات الكتّاب السنّيين لهذه الفترة التاريخية التى هى مدار البحث . فهناك تسلسل وتطوّر متّصل يجدر بنا أن نجده ، أوله قبل حملة المغول ، يسير بنا مع علماء السنة فى هذه الفترة من امثال عضد الدين الأيجى والسيد الشريف الجرجانى وسعد الدين تفتازانى وينتهى بجلال الدين دوّانى المعاصر لشاه اسمعيل .

۱۰ — هذه هى المصادر الدينية والمذهبية لهذه الفترة وهؤلاء بعض الكتّاب والعلماء يجدر بنا ان نلقى نظرة ثانية على مؤلفاتهم وحياتهم وتاريخهم والدور الذى لعبوه فى مختلف الحركات الاجتماعية بين مجىء المغول وظهور الصفويين . أما المصادر الادبية فهى ما كتبه الادباء والشعراء فى هذه الفترة — وهى من العصور الذهبية فى الادب الفارسى . ويكفى ان نذكر هنا أسماء سعدى وحافظ وسلمان ساوجى وعبيد زاكانى فى ايران وجلال الدين رومى فى الاناضول وجامى فى ماوراء النهر لنعلم ان فى شعرهم وكتاباتهم مادة غنية هى أدب غزير فى الدرجة الاولى لكنّها ايضا حاوية على الكثير من الاشارات ذات الفائدة التاريخية . فالشعراء كانوا ملوك البيان وكان بعض الملوك والسلاطين شعراء ايضا كتبوا الشعر وناقضوا القصائد ولهم دواوين شعر هى خير ما عبّر عمّا كان يدور فى خلدهم . فاقرأ ما كتبه جهانشاه قراقوينلو ، او طالع بعض قصائد «خطائى» (وهو شاه اسمعيل نفسه) تعرف نفسيّة هؤلاء القوم ، فيصبحون نماذج حيّة هى خير مثال لقادة عصر كانوا يحكمون ويرسمون ويقرّرون مصير أقوام درسوا وذهبت آثارهم وبقيت أقوالهم تذكّرها بعصر مضى نشطت حضارته ردحا من الزمن فكانت لامعة ذهبية تشبه أكثر ماتشبه تلك الرسوم الدقيقة التى خلّدتها ريشة الفنّان الكبير بهزاد فى تصاويره وتلك المساجد الزاهية الألوان التى شيّدها الصفويون فى اصفهان .

١١ – وقبل ان نترك بحث المصادر التاريخية لهذه الفترة يجدر بنا ان نشير الى بعض المصادر الأجنبية التى لها قيمتها فى تفهّم بعض مشاكل هذا العصر – مع العلم مبدئيّا ان هذه القيمة محدودة وانه لايمكن بأى حال من الأحوال ان نعتمد كلّيا على هذه المصادر (كما فعل بعض المؤلفين الذين لم يكن لديهم علم باللغات الاسلامية) أو ان نوليها مركز الصدارة فى تحقيقاتنا . فهى ان لم تخل من فائدة فانّ فائدتها ثانوية بالنسبة الى المصادر الأصلية التى ذكرناها . وبعض هذه المصادر هى عبارة عن « رحلات » قام بها تجّار اوروبيون او افراد من السلك الدبلوماسى او رحّالة من أمثال ماركوبولو وكلافيخو وغيرهم ، ومع ان بعض ملاحظات هؤلاء الافراد جاءت ثاقبة الّا ان جهلهم بالاوضاع المحلّية والتاريخ الاسلامى والتقاليد الشرقية جعلهم يكثرون من الشطط واللغو بحيث أصبحت رحلاتهم وأقوالهم وآراؤهم تضلّ السبيل ، فلذلك يجب الاستفادة من مؤلفاتهم مع الحذر الشديد . وأين هم من ابن بطوطة مثلا ورحلته التى مازالت منبعا معينا من المعلومات الدقيقة عن الاقطار التى زارها فى هذه الفترة .

١٢ – وربّما كان أهم من هذه الرحلات تلك « التقارير » التى كان يبعث بها سفراء وممثّلو جمهورية فينيسيا الى مجلس شيوخ الدولة حيث كانت تناقش وتتّخذ أساسا للسياسة التى كانت ترسمها هذه الجمهورية فى كثير من أقطار الشرق بما فيها ايران والامبراطورية العثمانية ودولة المماليك فى مصر . وبالاضافة الى هذه التقارير لدينا « مذكّرات » لبعض الساسة الذين كانوا يراقبون سير الامور فى الدول الاسلامية ، وأهمها بنوع خاصّ مذكّرات مارينو سانوتو عضو مجلس الشيوخ فى فينيسيا ومؤرّخ الجمهورية الرسمى الذى عبّأ ثمانية وخمسين مجلّد كبير بمذكّرات يومية مفصّلة هى مصدر هام مستقلّ من المصادر الأجنبية عن تاريخ ايران فى اواخر القرن التاسع واوائل العاشر .

١٣ – ولسنا اول من بدأ فى تدوين تاريخ هذه الفترة ولا اول من قال كلمته فيها . فهناك الكثيرون من الكتّاب شرقيين وغربيين الذين جذبتهم هذه الفترة الغنيّة من تاريخ ايران قبل مجىء الصفويين فكتبوا عنها وأسهموا فى شرح بعض أحوالها فى كتب ومقالات

لاغنى للمحقّق عنها . وعلى رأس هؤلاء عدد من الكتّاب الايرانيين نذكر منهم محمد قزوينى وعبّاس اقبال آشتيانى واحمد كسروى تبريزى ، ونذكر من مؤرخى العراق عباس العزّاوى ، ومن تركية محمد فؤاد كربرولو وزكى وليدى طوقان وغيرهم كثيرون . أما من المستشرقين ومؤرخى الاقطار الغربية فانّ للكاتب البريطانى ادوارد براون مركزا خاصا فى البحوث الايرانية من أدب وتاريخ وتحقيقات جمّة لاتزال ذات فائدة كبيرة . الّا أنه يمكننا ان نعتبر فلاديمير مينورسكى الذى قضى معظم حياته العلمية فى بريطانيا زعيم الدراسات الايرانية لهذه الفترة دون منازع . فانّ تحقيقاته العديدة التى نشرت تباعا فى مجله كلّية الدراسات الآسيوية والافريقية لجامعه لندن هى من أهم ماكتب عن تاريخ ايران فى القرن التاسع . وهناك عدد كبير من المؤرخين الالمان من أمثال هنتس وشبولر ورويمر ، والفرنسيين من أمثال جان أوبن ومولى ، والروس من أمثال بارتولد وكوردلفسكى وبتروشفسكى وغيرهم ، والايطاليين من أمثال باوسانى ، والامركيين من أمثال هودجسون وديكسون ، والكنديين من أمثال سافورى وويكنز — وكلّهم قاموا بتحقيقات ودراسات ذات أهمية بالغة تساعد المحقّق كثيرا فى تتبّع المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها فى هذا الدور من تاريخ ايران . ونحن ان ذكرنا هؤلاء انّما نذكر بعض النجوم اللامعة الذين نستطيع أن نسير بهديهم فى سبيل تفهّم بعض المشاكل التى نصادفها فى طريقنا . أما فيما عدا ذلك فما علينا الّا الرجوع الى المصادر الأصلية ذاتها التى لاغنى لنا عنها بأى حال من الأحوال .

١٤ — وهناك موضوعات أخرى غير هذه تستحقّ البحث قد نأتى على ذكرها بعض الشىء أثناء سيرنا فى تتبّع الحوادث التاريخية فى أبوابها المدرجة أعلاه . ومنها موضوعان كبيران جديران بأن تخصّص لها دراسة مستقلة هما العلاقات السياسية وغيرها بين ايران ودول غربى اوروبا من جهة ، والعلاقات بين ايران وجاراتها اى التيموريين فى الشرق والعثمانيين فى الغرب والمماليك فى الجنوب الغربى من جهة أخرى .